القاعدة في علم الصرف، فرض المعنى و تشكلات الواقع

د. جاسم صادق غالب الموسوي،
جامعة البصرة، العراق

الملخص

لقد تقصدنا في البحث الموسوم بـ(القاعدة في علم الصرف ، فرض المعنى وتشكلات الواقع) تحقيق هدفٍ مركزي هو أن نستنطق المقاييس التي تساعد على بناء القاعدة الصرفية ، التي يمكن إرجاعها – من وجهة نظرنا – إلى عاملين هما : المعنى والواقع ، ونحن بصدد رصد المعايير الصحيحة لبناء أي قاعدة في أي علم ، يضاف إليها المعايير الفنية التي سكت عنها البحث آملاً أن تبحث من لدن باحث آخر. لقد ترتب عن التصورات النظرية والتطبيقية المبتنية في البحث أن الواقع الاعتباري له سلطة في إقناع المتلقين للخطاب الصرفي قبولاً أو رفضاً في تشكيل القاعدة الصرفية ، كما في افتراضات سيبويه الذهنية لبناء دلالة بعض الابنية لغير ما بناه الواقع الاعتباري . إن القاعدة الصرفية مهما كانت محكمة البناء فإنها قد خضعت الى مقاربة محتكمة للواقع الاعتباري المنتج للغة بصوة عامة وللقاعدة الصرفية بصورة خاصة ؛ وهما – اللغة والقاعدة – قد أنشئت في ضمن استراتيجيات ما بعد الاجتماع . وتفضي بنا تلك التصورات – أيضاً - إلى ضرورة إعادة النظر في مدى التأثير الذي يشكله المعنى في انتاج القاعدة الصرفية ؛ لمناهضة الإفراط التوليدي المحتمل لتشكيل أنظمة القواعد . ويقودنا أمر تلك التصورات إلى نتيجة ضمنية منجزة تتمثل في أن وظيفة القاعدة رهينة للمعنى والواقع ، اللذين يقومان بثلاث وظائف ؛ الأولى البناء ، والثانية الكشف ، والثالثة القبول أو الرفض . ألمح البحث ضمناً إلى إمكانية دراسة القاعدة في العلوم الانسانية على وفق نظرية أفعال الكلام ؛ من أجل دراسة البعد التداولي في تشكيل النظام المعرفي في هذه العلوم والوصول إلى النتائج السليمة .بعد أن تتم دراسة بُعديْ الإنتاج والتلقي.

المقدمة

إذا كان التلفظ فعلاً مُنْجَزاً يضطلع بوصف وقائع العالم الخارجي، فإنه يُحدِث بناءً تواصلياً بين المعنى والمرجع،يُجيز لنا ذلك السؤالَ عن المعنى،والسؤال عن الاستعمال؛لأن الأمر يتعلق بدراسة الملفوظات في ضمن معطى واقعي يسوّرُ بالفعل البياني المقترن بالمعنى والواقع .

ولا يبدو الأمر معقولاً عندما نقترح فراغ علوم العربية – بوصفها فعلاً بيانياً- من المعنى والواقع،بل هي عملية انتاج،قوامُها التفاعلُ بين شركاء التبادل المعرفي،القاعدة والمعنى والواقع.وهذا ما جوّز لنا أن نجعل لفرض المعنى والواقع معطى قبلياً يسوّر بنية الصرف العربي(القاعدة الصرفية).

وإذا رمنا مقاربة هذا التبادل المعرفي،فإننا نتجه صوب التحليل النسقي المحدد بمقاصدَ معينةٍ في أي حقل من حقوله.

يقتضي التمهيد التفكير في طبيعة الدلالات المكونة لعنوان البحث؛لينكشفَ أمرُها في هذا الفعل اللغوي وهذا ما سعت إليه أوراق البحث.

ويشتغل المبحث الأول على بيان التنظيم العلائقي القائم بين المعنى والقاعدة،والذي يفترض أن البيان في الصرف العربي لا يمكن أن يكون عملياً ولا تنظيمياً قابلاً للإدراك بدون هذه العلاقة،وبناءً على ذلك فإن التجسيد الفعلي المكون لهذا المبحث يتشكل بفعل ثلاثة أقسام؛وجه الأول منها صوب فرض المعنى للقاعدة الصرفية،ثُمَّ مُرِّر ثاني الأقسام بفرض القاعة للمعنى،مستثمراً المواد المشكلة للقسم الأول.أما القسم الثالث،فكان متوجهاً نحو دور القاعدة في تشتيت المعنى لإنتاج فهوم متعددة .

ثمَّ إن المبحث الثاني يفضي بنا إلى اختيار عنصر الواقع الذي يتيح لنا الفرصة لحضورٍ فعلي لثلاثة أقسام؛يتضمن القسم الأول بيان تشكيل الواقع للقاعدة الصرفي،ويرصد القسم الثاني بيان تشكيل القاعدة للواقع،والقسم الثالث يسهم في كشف الواقع لصدق القاعدة الصرفية أو كذبها.

وما تحصل عليه في نهاية المسيرهو نتيجة معرفة تسمى بالخاتمة تطرحها التصورات المبتنية من المباحث الثلاثة.

ولا يفصل حدٌ بين الخاتمة وقائمة المصادر.

التمهيد

القاعدة

تكمن الإنطلاقة الأولى لتعريف مصطلح ما،في تأسيس البعد الإستعمالي داخل المعجم،فهو المحل الذي يمتلك الوحدات الأولية للغة،التي توفر أرضية الإنسجام والتلاؤم بين الوضع والاصطلاح،فإن حاولنا البحث عن معنى (القاعدة)،فسنجد أن اللفظ يرجع في بنائه إلى (قَعَدَ)،و «قَعَدَ يقعد قعوداً (خلاف قام) »(الفراهيدي ،١٩٨٢م :١٤٢/١)،بيد أن معنى (القاعدة) يجاوز فكرة القعود والقيام،فـ« القواعد: أساس البيت»(المصدر نفسه:١٤٣/١).

من هذا التعريف في بنيته الأولى تتضح أهمية القاعد؛فهي الأساس الذي تبتني عليها العلوم التي لا يمكن تصورها بدون القاعدة،فهي الأساس والضابطة التي تحكم التنظير والتطبيق؛لأنها تحمل في طياتها أحكام جزئياتها التي تندرج تحت مظلتها ، كما أنها تشتمل على فعل التطبيق عند سريان القاعدة في المجال التطبيقي عند العلوم،فهي إمكانات تمنح الإنتاج في السياق الخارجي.

وهاتان الصفتان أحالت المدونات الإصطلاحية الى تعريفها بأنها « قضية كلية منطبقة من حيث اشتمالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها،وتسمى فروعاً،واستخراجها تفريعاً»(الكفوي ،١٤١٩هـ :٧٢٨).وستتجاهل هذه المدونة دراسة الانطباق الجمعي أو الغالبي على مفردات أو جزئيات

القاعدة؛لبعدها عن المرمى الذي دونت من أجله أوراق البحث.إلا أن هذه الإثارة تفضي بنا إلى تصورات عن القاعدة الصرفية ؛ إذ تركِّز على أنها جملة خبرية تحمل في طياتها أحكام جزئية الموضوع المتفرع عن تلك الجملة الخبرية.

المعنى

وإذا حاولنا نسبة لفظ (المعنى) إلى مقارباته المعجمية،فسنجده في معجم العين« معنى كل شيء: محنته وحاله الذي يصير إليه أمره »(الفراهيدي، ١٩٨٢م:٢٥٣/٢).

مثَّل النص الخليلي المتقدم التأسيس لكل نشاط معجمي لاحق،فكانت الإحالات اللفظية واضحة في متأخري المعاجم.بيد أن ظروف الإنتاج في العصور اللاحقة لعصر الخليل أنتجت مجالات استعمالية قدمت إيضاحاً أكثر تداولاً مما ألفناه في نص الخليل،تحددت تلك الاستعمالات في الإضهار والفحوى والمقصد والمضمون الاقتضاء (إبن منظور،دون تا:١٠٦/١٥ ؛ الجوهري ،١٩٩٠م:٢٤٤٠/٦؛الزبيدي ،٢٠١١م :١٢٢/٣٩).

وإذا خرجنا من الخطاب المعجمي الى التداول الاصطلاحي ، فإننا سنمر بمرحلة خلافية لتحديد المراد من لفظ (المعنى)؛إذ تتداول هذ اللفظ إتجاهات متعددة صعُب عليها الإلمام به من حيثياته جميعاً، لكن محاولة الأخذ والاستلهام من المقولات المتعددة تشكل لنا ما نرمي الوصول إليه، فقد عرفه الشريف الجرجاني قديماً بقوله:«المعاني هي الصور الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الالفاظ والصور الحاصلة في العقل»(الجرجاني ،٢٠٠٣م:٢١٨).وحديثاً نجد المعنى موصوفاً بأنه «التصور الحاصل في الذهن،أو الفكرة التي يشكلها الوعي عن مظاهر الاشياء في العالم أو الواقع الخارجي المحيط به »(الفواز : ٢٠١٣م:١).

يحيل هذان التعريفان إلى مجموعة من العناصر المكونة لـ(المعنى) هي:

الوجود،ويمثله في التعريف مظاهر الاشياء في العالم أو الواقع الخارجي.

الوجود الذهني أو الصورة الذهنية المنتزعة من مظاهر الأشياء في العالم أو الواقع الخارجي.

الذهن،محل تواجد الصورة الذهنية (المعنى)،يمثله الوعي أوالذهن،فالمعنى ليس وجوداً لفظياً تمثله موجات صوتية،ولا وجوداً كتبياً يُدرج على أرواق،بل هو وجود ذهني .

وفي عملية الانتاج والتوصيل يتشكل المعنى بأن تؤخذ صورةٌ من الوجود، أو تُنتزَع منه،ثم تستقر في الذهن ويتم إيصالها بطريقين؛الأول كتابياً بأن يدون بوساطة الحروف اللغوية على هيئة كتابية،والثاني صوتياً بأن ينطق بوساطة الموجات الصوتية.

الواقع

يتجلى معنى (الواقع) في المدونة المعجمية على أنه«وقعة الضرب بالشيء»(الفراهيدي ،١٩٨٢م :١٧٦/٢)،ويقال:«وقع على الشيء ومنه يَقَعُ وَقْعاً ووُقُوعاً سَقَط ».(إبن منظور،دون تا:٤٠٣/٨)

وهذا المعينان يحملان مبدءاً إجرائياً تضمنته المعاجم الاصطلاحية،فقررت أن الواقع ماله تحقق(السيوطي ،دون تا،٢٠٨/١)،ومن ثَمَّ فإن الوقعة والسقوط لها تحقق في ضرفيهما.

فالظرف المتحقق للشيء لا يجيز العبور عبر فضاءاته دون الإرتباط بمنطلقاته الإجرائية،فالواقع الصوتي يفرض موجات صوتية وجهازاً صوتياً ووسطاً ناقلاً،والواقع الكتبي يفرض قوانين الكتابة على مدخلاته،والواقع الإعتباري يدخل علم الإعتباريات في قوانينه وإجراءاته.

وإذا استثمرنا الكلام المتقدم،فإننا سنجد الواقع مؤثِراً في قواعد العلوم ومنها القاعد الصرفية،كون موضوعها له تحقق في عالمه،إنتاجاً وبقاءً، فالمعنى المنتزع من مظاهر الأشياء يؤثر في القاعد الصرفية،كما أن الأخيرة تبني أو تبدو جزءاً من الواقع،وهذ ما اتضح عند تسجيل المكونات الاساسية للمعنى فيما تقدم.

المبحث الأول: فرض المعنى

القسم الأول: فرض المعنى للقاعدة الصرفية

بعد أن تشكلت علوم العربية بفعل عوامل كانت ترمي الحطَّ من قيمة الفهم والتفهيم،ساعدت القاعدة الصرفية المبتنية على ضبط الإنتاج اللغوي على وفق صياغات مقننة،تهدف للحفاظ على المعنى،بل إن المعنى قد صاغ بقدراته تلك المرتكزات التي ما فتأت تصون اللسان العربي،فكثيراً ما حملت القواعد الصرفية في فضاءات المعنى؛لذا بقي علماؤنا الأوائل يقظين من الإنتاج الصرفي الخارج عن أسوار المعنى،وهذا ما يدل على تمتع المعنى بخاصية الإنتاج لتلك القواعد.

يمكن أن نجد أوضح ممارسة في عملية فرض المعنى للقاعدة تلك الإختيارات المقصودة لبنية الفعل بين الحركة والسكون؛فالعرب«قد يلتزمون أحدَ الوجهين للفَرْق بين المعاني في بعض ما يجوز فيه الوجهان ؛كقولهم:ينفرُ بالضم من النِّفار والاشمئزاز،وينفِر بالكسر من نفر الحُجاج من عَرَفات »(المصدر

نفسه :٢٠٨/١).فالقاعدة هنا مبتنية على مراد المتكلم؛فإن أراد النفار والاشمئزاز من الفعل (نفر) جاء بمضارعه مضموم الفاء (ينفُر)،وإن أراد نفور الحجاج من عرفات جاء بمضارع (نفر) مكسور الفاء (ينفِر).

والأمر لا يتعلق بخضوع بِنية الكلمة للمعنى فقط،بل يتعداه الى ما يترشح منها«قال الكسائي:إنما يقال:آل فلان وآل فلانة ولا يقال في البلدان،لا يقال:هو من آل حمص ولا من آل المدينة،ولا يجوز أن يقال فلان من آل البصرة ولا من آل الكوفة، بل يقال من أهل البصرة،ومن أهل الكوفة.ومنع الكسائي جواز اقتياسه من المضمر.وحكى الكسائي:أويل، وإذا جمعته قلت (آلون) فأما (الآل) الذي هو السراب فجمعه (أأوال) على أفعال.ويقال في تصغير (آل) أويل نقله الكسائي نصاً عن العرب»(الكسائي ،١٩٩٨م:٦٩-٧٠). فمن هنا جاء جمع الكلمة (آل) تبعاً للمعنى الذي قصده المتكلم،وبُنيتْ القاعدة في هذا اللفظ على أن الـ(آل) بمعنى (أهل) جمعه (آلون)،وبمعنى السراب جمعه (أأوال).

يتجلى مما تقدم أن الألفاظ أوعية للمعاني،وهي - الألفاظ - لا محالة تتبع المعاني في مواقعها،فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفسِ وجبَ اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق.(الجرجاني،٢٠٠٤م:٥١).ومن ثَمَّ فإننا لا يمكن أن نتغاضى محددات بنية الكلمة – المعاني – في تشكيل القاعدة الصرفية بدءاً.

القسم الثاني: فرض القاعدة للمعنى

بعد أن ترتكز القاعدة على المعنى ، فإنها تكون – عندئذ- فعلاً مقصوداً ، تحصل الفائدة من العملية التواصلية عبرها ، ومن ثَمَّ يصبح بالإمكان استثمار القاعدة في معرفة المعنى ؛ لأن المعاني تنبثق منها ، لكنها تفرض معنى على وفق معطيات معينة .

وإذا رمنا البحث عن معطى القاعدة الصرفية لفرض معنى،نجد العملية واضحة في مجالات شتى،منها قاعدة زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى،ومصداقها قول سيبويه« وتقول:سقَيْتُه فشرب،وأسْقَيْتُه:جعلت له ماءً وسُقْيا،ألا ترى أنك تقول:أسْقيْتُه.فَسَقَيْتُه مثل كَسَوْتُه،وأسْقيْتُه مثل ألْبسْتُهُ»(سيبويه،١٩٨٢م:٥٩/٤).

هذا فيما يتعلق بمفردة تقع قاعدة،والأمر يبدو شديد الوضوح عندما قرر علماؤنا أن (فَعِلَ) وزن الكلمات ذات الدلالات على العلل والأحزان وأضدادها والحلي والعيوب،نحو:سَقِم وحَزِن وفَرِح وحَمِق،وما قاربها في المعنى،نحو:عَسِر وخَزِي (إبن مالك ،١٤١٠هـ:٤٣٨/٣-٤٣٩).

وقرروا أيضاً أن الدلالة المنتجة من البنية هي الفيصل في كون الصيغة الصرفية إسم فاعل أو صيفة مشبهة؛فإن دلَّ البناء على الحدوث كانت الصيغة تابعة لإسم الفاعل،وإن دلَّ على الثبوت بمعنى الاستمرار واللزوم كانت الصيغة تابعة للصفة المشبهة،و الموصوف متصف بها على نحو الملازمة في الازمنة جمعها،بخلاف اسم الفاعل الدال على اتصاف الموصوف بالصفة بزمان معين(إبن يعيش ،دون تا:٨٣/٦).إذ أن لفظة (قائم) أدوم واثبت من لفظة (يقوم) التي تشبه اسم الفاعل بالحركات والسكنات،ولكن ثبوتها للذات المتصفة بها لا يرقى إلى ثبوت (احمر،أو طويل،أودميم) فانه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس أو غيره،ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول أو الدمامة أو القصر(السامرائي،١٤٢٨هـ :٩٢).

وعليه فإن أمر القاعدة التصريفية ينصرف إلى الدلالة المنتجة،فضلاً عن كونها تقدم لنا الوسائل العملية الداخلة في الممارسة الدلالية،مثال ذلك ما ذكرناه في تهيئة المتلقي لقبول أو رفض كون صيغة اللفظ إسم فاعل أو صفة مشبهة،أو أنها مهدت الطريق بدءاً إلى أن ما جاء على وزن (فَعِلَ) يغلب فيه العلل والأحزان وأضدادها،أو أنها – القاعدة التصريفية – قد أعطت نشاطاً تحليلياً فرقت فيه بين دلالة الأبنية بسبب زيادة البناء كما في سقيت وأسقيت.

القسم الثالث: القاعدة وتوجهات المعنى

إن حراك علمائنا في إنتاج القاعدة التصريفية،ووقوع المعنى طرفاً في المساءلة الدلالية أجاز لنا التساؤل عن مدى تأثير القاعدة في فرض المعنى - تحققاً وإنجازاً- على وحدة المعنى وتعدده.

إن المعطى المعرفي لعلمائنا الابرار يشيد لنا صرحاً لبيان جواب التساؤل المطروح؛فثبوت متعلقه – الجواب- واضح في المنجز الخلافي في علم الصرف العربي،ولا أدل على ذلك من الخلاف الذي دار بين العلماء في مفهوم صيغ المبالغة وأبنيتها وتطبيقاتها،فأبنية المبالغة من المشتقات الملحقة باسم الفاعل،تأتي للدلالة على المبالغة والكثرة في الحدث المنسوب إلى الذات على وجه التغير والحدوث.فإذا أُريد تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه،حُوِّل من اسم الفاعل إلى أبنية المبالغة(المبرد،١٤١٥هـ:١١٢/٢-١١٣).

ويفهم من المقتضى الدلالي المضمر في معنى (المبالغة) أن هناك كثرة تثبت للشيء أكْثر مما له،وهنا أُشكل أن صفات الله –عز وجلَّ – لا مبالغة فيها وقد جاءت على زِنة المبالغة؛فهي – صفات الله – متناهية في الكمال،وإنما تكون المبالغة في وصف يقبل الزيادة والنقصان.

أجيب عن هذا الإشكال بأن زِنة المبالغة في الصفات الإلهية أنتجتْ دلالات متعددة –بحسب توجيه الدارسين – يمكن أن نجملها على النحو الآتي:

إن صيغ المبالغة في صفات الله محمولة على الدلالة المجازية (السيوطي،دون تا:١٧٧٤/٥).

إن المبالغة الحاصلة في هذه الصفات هي بحسب زيادة الفعل.

إن هذه المبالغة ناتجة من تعدد المفعولات(الزركشي،١٣٧٦هـ:٥٠٧/٢).

و الدلالة الأخيرة أنتخبها الزمخشري في بيان تفسير قوله تعالى: « أن الله سميع عليم»[البقرة /٢٤٤]،فقال:« والمبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده»(الزمخشري ،١٤١٨هـ:٥٨٤/٥).واختار ابن عاشور كثرة العلم ، بسبب زيادة الفعل،وفسر المبالغة في (الرحمن) و(الرحيم) بتعلق الرحمة بكثرة المرحومين.(إبن الجوزي ،١٤٠٤هـ:٥٨/١).

٤- ويبني إبن الجوزي دلالة زِنة المبالغة في الصفات الإلهية نحو (العليم والبصير) على أنها كمال الصفة فيها؛فالعليم تعني كمال العلم والبصير كمال البصر(زاد المسير،١٩٨٤م:٥٨/١).

٥-وفضل الطبري دلالة النسب في بعض الصفات الالهية التي تأتي على زِنة المبالغة،كـ(صبار وشكور)،فهما بمعنى ذي صبر وذي شكر(الطبري ،دون تا:٥٢٣/١٦).

أما نشاط القاعدة الصرفية في مجال وحدة المعنى فقد اتضح من القسمين الأولين من هذا المبحث.

وصفوة القول إن تلاقي المعنى في القاعدة الصرفية إنتاجاً وتحققاً يشير إلى أن القاعدة تتمتع بوظيفة استكشاف المعنى سواء بالوقائع الدلالية المتضمنة فيها أم بالوقائع المؤولة لها.

المبحث الثاني: تشكلات الواقع

القسم الأول: تشكيل الواقع للقاعدة الصرفية

إن القاعدة الصرفية مهما كانت محكمة البناء فإنها قد خضعت الى مقاربة محتكمة للواقع الاعتباري المنتج للغة بصوة عامة وللقاعدة الصرفية بصورة خاصة؛وهما – اللغة والقاعدة – قد أنشئت في ضمن استراتيجيات ما بعد الاجتماع،حيث نشأت تجمعات بشرية،وسارت في سياقات عملية الفهم والتفهيم من أجل حماية التعاون التواصلي بين أفراد النوع الإنساني.

وعليه فإن انساق الواقع الاعتباري قد تضافرت في اصطناع هذا الإجراء – اللغة – وإذا بحثنا عن إجراء فعل تأثير الواقع في إنتاج القاعدة الصرفية فإننا نجد في سياقات نصوص سيبويه ما يدل على مبتغانا،فقال في (باب ما تمال فيه الألفات):«فالألف تمال إذا كان بعدها حرفٌ مكسور.وذلك قولك:عَابِدٌ،وعَالِمٌ،ومساجدُ،ومَفاتيحُ،وعُذافِرٌ،وهابيل . وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أنْ يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا صَدَرَ،فجعلوها بين الزاي والصاد فقرَّبها من الزاي والصاد التماسَ الخفة » (سيبويه ،١٤٠٢هـ:١١٧/٤).فالعرب أرادت بإرادة إعتبارية وضعية أن تميل الحرف اللاحق للألف إلى الكسر،كما في هابيل وعذافر و مفاتيح ومساجد وعالم وعابد.

وذهب سيبويه إلى أنَّ كلَّ شيء كانت أَلِفُهُ موصولةً مما جاوزتْ حروفُهُ ثلاثةَ أحرفٍ في (فَعَلَ)،فإنه تكسَر أوائل الأفعال المضارعة للأسماء؛لأن العرب أرادتْ أن تكسر أوائلها كما كسرتْ أوائل (فَعَلَ)،فلما أرادتْ العرب الأفعال المضارعة على هذا المعنى كسرتْ أوائلها؛كأنها شبهتْ هذا بذلك،وإنما منعها أن تكسرَ الثواني في باب (فَعَلَ) أنها لم تكن تحرَّك،فوضعتْ ذلك في الأوائل،ولم تكن لتكسرَ الثالث؛فيلتبس (يَفْعِل) بـ(يَفْعَل)،وذلك قولنا:استغفرَ فأنت تَسْتَغْفِرُ،واحْرَنْجَمَ فأنت تِحْرَنْجِمُ،و اغْدَوْدَنَ فأنت تِغْدَودِنُ،واقْعَنْسَس فأنا إقْعَنْسِسُ.وكذلك كل شيء من (تَفَعَّلْتُ) أو (تَفَاعَلْتُ) أو(تَفَعْلَلْتُ) يجري هذا المجرى*(المصدر نفسه : ١١٢/٤)*.

إن هذه الإرادة التي أنشأت القواعد الصرفية على وفقها،قامت عن تراضٍ عقلائي لتحقيق عملية التواصل،وسار أفراد العربية على احترام قواعد اتخاذ هذه القرارات التي هي نشاط عقلائي تحدده معايير اعتبارية متفق عليها،لا على اساس التفاعل بين العلل والقوانين الفلسفية،التي قد تفسر القاعدة الصرفية بتحليل لا يمت الى الواقع اللغوي بشيء.وفي ميدان تبرير أي واقعة لغوية،يقال أنها واقعة لغوية مبتنية على إعتبار بشري،أسهم في تأسيس أفعال التواصل بين أفراد اللغة الواحدة.

القسم الثاني: تشكيل القاعدة للواقع

ذكرنا في القسم الأول من المبحث الأول كيف كان للقاعدة الصرفية دور في انتاج الدلالة،ونود أن ننبه هنا على أن الإجماع التواصلي الذي ذكرناه في القسم الأول من المبحث الثاني لا يعني وجود انسجام مطلق بين سائر المتخاطبين،الذين تقبّلوا القواعدَ الصرفيةَ المبثوثة في النصوص اللغوية،نعم،حققتْ فهماً ممكناً بين المتلقين مبنياً على تلقٍ واعٍ يقبلُ الفهمَ الآخر.

وفي هذا الصدد يمكن الإحالة الى تعدد ساحات الصراع،التي تتضمنها بعض القواعد الصرفية،ومن أمثلتها أن صيغة (فاعَل) لها دلالات عدة منها المشاركة،وأن هذه الدلالة مستمدة من النص اللغوي بلا شك،أراد هذا النص أن يبلغ المتلقي مقاصده فكيف أُنتِج المعنى في مثل دلالة المشاركة لصيغة(فاعَل)؟.

في قوله تعالى:«يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم »[البقرة /٩] نرى أن(يخادعون) جاءت على صيغة (فاعَل) فكيف لنا أن نعطي معنى المشاركة في (الخداع) بين الله ــ عز وجل ــ وبين الكفار أو المنافقين؟.

تتجلى الاجابة عن هذا الإشكال الذي أنتجته القاعدة الصرفية في تعدد المعاني المنتجة على ما أوضحه إبن الجوزي في الاقوال الآتية:

إن المنافقين يخادعون المؤمنين،فكأنهم خادعوا الله تعالى .

إنهم قد خادعوا نبي الله،فأقام الله نبيه مقامه،فكان خداع النبي خداعاً لله تعالى.
إن الخادع في العربية على ما حكته العرب هو الفاسق .
كان المنافقون يفعلون في دين الله ما لو فعلوه بينهم لكان خداعاً.
إنهم كانوا يخفون كفرهم،ويظهرون الإيمان بالله عز وجل خلافاً لواقهم(إبن الجوزي،١٤٠٤هـ:٢٩/١-٣٠).

إن الانجاز اللغوي المتحقق في الصورة أعلاه قد ارتبط بصور مختلفة للواقع المنتج بفعل القاعدة،وإذا لم يفِ المطلب السالف ببيان الاختلاف في إنتاج الواقع يمكن أن نجدَ في صيغة (أفْعَل) في قوله تعالى: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » [البقرة /٢٦] توضيحاً لذلك من خلال استحضار النسق الانتاجي الآتي:

إن معنى صيغة (أفعل) في الآية هو التسمية،إذ إن من معاني هذه الصيغة التسمية .(سيبويه، ١٤٠٢هـ :٢٤٥/٤)، وبناءً على ذلك فإن معنى قوله تعالى:(يضل الله الكافرين) هو يسميهم ضُلاّلاً.

إن صيغة (أفعل) تفيد الوجدان بمعنى أنك تجد الشيء على صفة فتقول: أحمدته أي وجدته محموداً (إبن عصفور،١٩٩٦م:١٢٨)،والهمزة الداخلة على صيغة (فَعَلَ) لا للتعدية،ومعنى إضلال الله تعالى لهم أنه سبحانه وجدهم ضالين (سيبويه ، ١٤٠٢هـ،٢٤٩/٤).

وفي توجيه ثالث قيل أن همزة صيغة (أفعل) جيء بها للتعدية (إبن يعيش،دون تا:١٥٩/٧).

القسم الثالث:- تشكيل الواقع لصدق القاعدة الصرفية أو كذبها.

إن قدراً من فعالية الواقع الإعتباري الذي استنَّه العرب في القاعدة الصرفية تتجلى في قبوله القاعدة أو رفضها؛لإنه أنشأها عن طريق الوعي بمقاصده أو الوعي بما تؤول إليه،لذا فالقاعدة الصرفية إنتاج ذهني موجه بوعي المتكلم وادراكه واعتقاده وشعوره،وهي وجود لفظي محكوم بقواعد اللغة وطرق اشتغالها،فما قبله الواقع الاعتباري قبله الواقع اللغوي ومن ضمنه الواقع القواعدي لعلم الصرف،ومارفضه الأول تبرأت الواقعيات الأخرى من تشكيله إنتاجاً وتحققاً؛ لإنه لا تتواجد المعاني المفترضة بشقيها المضمرة قبل الإنتاج،والمتحققة بعده.

إنطلاقاً من هذا الوعي بوظيفة الواقع الاعتباري نتوجه إلى البيان الإجرائي للواقع الاعتباري،لنجد كلمات سيبويه التي تبين عدم تواجد بعض الصيغ في بنية الكلام العربي،قال:«هذا باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير (الفعل) فالهمزة تلحق أولاً فيكون الحرف على (أفْعَلٍ) ويكون للاسم والصفة فالاسم نحو:أفْكَلٍ،وأيْدَعٍ،وأجْدَلٍ.والصفة نحو :أبْيَضَ،وأسْوَدَ،وأحْمَرَ.ويكون على (إفْعَلٍ) نحو:إثْمِدٍ،وإصْبَعٍ،وإجْرِدٍ.ولا نعلمه جاءَ صفة » (الرازي ،١٤٠١هـ: ١٥٦/٢).

يصرح سيبويه أن بناء(إفْعِل) لم يأتِ في كلام العرب على نحو الصفة،بل جاء ليمثل دلالة الإسمية في الالفاظ كلِّها التي جاءتْ على وفق هذا البناء،ليدرك المتلقي أن الواقع الإعتباري فرض في هذا البناء الدلالة الاسمية فقط.

ومما لم ينجزه الكلام العربي و لم يتم وقوعه وفقاً لإستراتيجية الواقع الإعتباري هو (فاعَل) للدلالة على الصفة ومجيء(فاعُل).قال سيبويه:«وأما (الألف) فتلحق ثانيةً،ويكون الحرف عَلى (فاعِل) في الاسم والصفة.فالأسماءُ نحو:كاهِلٍ،وغارِبٍ،وساعِدٍ.والصفة نحو:ضارِبٍ،وقاتلٍ، وجالسٍ.ويكون (فاعَلاً) نحو:طابَق وخاتَمٍ،ولا نعلمه جاء صفة.وليس في كلام العرب فاعُلٌ»(سيبويه،١٤٠٢هـ:٢٤٩/٤-٢٥٠).

ومما لم يأتِ به الواقع الاعتباري اللغوي هو عدم مجي ألفاظ على زِنة (فاعِلاء،و فاعُولاء) للدلالة على الصفة،وانما جعله الإعتبار للدلالة على الأسماء فقط،نحو:ساباط،وخاتام في (فاعال)،ونحو:القاصِعاءِ، والنافِقاءِ،والسَّابِياءِ في (فاعِلاءِ) (تفسير إبي السعود ،دون تا:٧٤/١-٧٥).

ومما لا يمكن أن نجده في انتاج المجتمع اللغوي لبنية اللفظ غير ما دوناه هو لأبنية المضروبة مثلاً فيما يأتي:

بناء (فعاويل) ويكون وصفاً نحو القراويح والجلاويخ وهي العظام من الأودية ولم يأتِ اسماً (سيبويه ،١٤٠١هـ :٢٥٣/٤).

بناء(فيعل) ويكون في الصفة قالوا حيفسٌ وصيهم ولم يأتِ اسماً (*المصدر نفسه*:٢٦٧/٣).

مثال (فعلٌ) ويكون في الصفة نحو الشمخر والضمخر والدبخس ولم يأتِ اسما*(المصدر نفسه:٢٩٨/٤).*

بناء(فعللٌ) ويكون في الصفة نحو قسقبٌ وقسحبٌ وطرطبُ ولم يأتِ اسماً*(المصدر نفسه:٢٩٩/٤).*

مثال (فعلللٍ) في ويكون الصفة قالوا قهبلسٌ وجحمرشٌ وصهصلقٌ و لم يأتِ اسماً *(المصدر نفسه:٣٠٢/٤).*

إن هذه الممارسة الإعتبارية اللغوية لا تتعلق بالإسم أو الصفة فقط،بل قد يشملها معاً،قال سيبويه:«واعلم أنّه ليس في الأسماء والصفات فُعِل ولا يكون إلّا في الفعل،وليس في الكلام فِعُل»*(المصدر نفسه:٢٤٤/٤).*

إن الابنية الصرفية التي ذُكِرَتْ قبل قليل لا تمتلك وجوداً متحققاً بالفعل في سياق الانساق اللغوية المصنعة من لدن الواقع الاعتباري،وإن ملكت وجوداً إفتراضياً منحه التقلبات بين الحركات والسكنات على حروف الكلمات اللغوية المفترضة الوقوع.ومن ثَمَّ لا تملك رصيداً دلالياً عند عملية الانتاج ولا تملك دلالة مفترَضة بعد الإنتاج،ودلالتها سالبة بانتفاء الموضوع بحسب التعبير المنطقي.

أما فيما يتعلق برفض الواقع للقاعدة الصرفية بعد تحقق إنتاجها،فقد ذكرنا أمثلة تطبيقية في القسم الثالث من المبحث الأول،فلا نعيده.وقبوله إياها واضح ضمناً في القسمين الأول والثاني من المبحث الأول.

الخاتمة

لقد تقصدنا من هذا البحث تحقيق هدفٍ مركزي هو أن نستنطق المقاييس التي تساعد على بناء القاعدة الصرفية،التي يمكن إرجاعها – من وجهة نظرنا – إلى عاملين هما:المعنى والواقع،ونحن بصدد رصد المعايير الصحيحة لبناء أي قاعدة في أي علم ، يضاف إليها المعايير الفنية التي سكت عنها البحث آملاً أن تبحث من لدن باحث آخر.

لقد ترتب عن التصورات النظرية والتطبيقية التي مرَّ ذكرها أن الواقع الاعتباري له سلطة في إقناع المتلقين للخطاب الصرفي قبولاً أو رفضاً في تشكيل القاعدة الصرفية،كما رأينا ذلك في افتراضات سيبويه الذهنية لبناء دلالة بعض الابنية لغير ما بناه الواقع الاعتباري.

وأفضت بنا تلك التصورات – أيضاً - إلى ضرورة إعادة النظر في مدى التأثير الذي يشكله المعنى في انتاج القاعدة الصرفية؛لمناهضة الإفراط التوليدي المحتمل لتشكيل أنظمة القواعد.

وفي نتيجة ضمنية منجزة تمثلت لنا في أن وظيفة القاعدة رهينة للمعنى والواقع،اللذين يقوم بثلاث وظائف:

الأولى:البناء .

الثانية:الكشف .

الثالثة:القبول أو الرفض .

وفي الختام نوجه سؤالاً يتم السؤال فيه عن إمكانية دراسة القاعدة في العلوم الانسانية على وفق نظرية أفعال الكلام؛من أجل دراسة البعد التداولي في تشكيل النظام المعرفي في هذه العلوم والوصول إلى النتائج السليمة.فهل بالإمكان القيام بذلك؟.

المصـــادر

القرآن الكريم

أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى(دون تأ)تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ،بيروت – لبنان : دار إحياء التراث العربي.

إبن الجوزي،جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م) زاد المسير في علم التفسير ،الطبعةالثالثة،بيروت:المكتب الاسلامي.

إبن يعيش،أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي(دون تأ)شرح المفصل،مصر:عنيت بطبعه ونشره ادارة الطباعة المنيرية.

إبن عاشور،محمد الطاهر(١٩٨٤م)تفسير التحرير والتنوير،تونس:الدار التونسية للنشر.

إبن عصفور،أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد،الحَضْرَمي الإشبيلي(١٩٩٦م)الممتع الكبير في التصريف،الطبعةالأولى ، تحقيق: د. فخر الدين قباوة ،بيروت – لبنان:مكتبة لبنان ناشرون.

إبن مالك،جمال الدين حمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الأندلسي(١٤١٠هـ -١٩٩٠م)شرح التسهيل،تحقيق: د.عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون،الطبعة الأولى،الجيزة :هجر للطباعة والنشر.

إبن منظور،أبو الفضل جمال الدين حمد بن مكرم بن علي(دون تا)لسان العرب، بيروت:دارصادر.

الجوهري،أبو نصر إسماعيل بن حماد(١٩٩٠م)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،تحقيق:أحمدعبدالغفورعطا، الطبعةالرابعة ، بيروت – لبنان:دار العلم للملايين.

الجرجاني،أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي(٢٠٠٤هـ)دلائل الاعجاز،قرأه وعلق عليه :محمود محمد شاكر،الطبعة الخامسة،القاهرة :مكتبة الخانجي.

الجرجاني،علي بن محمد بن علي الزين الشريف(١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)التعريفات،الشريف،وضع حواشيه وفهارسه:محمد باسل عيون السود، الطبعةالثانية،دار الكتب العلمية:بيروت – لبنان.

الزبيدي ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى(١٤٢٢هـ -٢٠١١ م)تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق:عبد المجيد قطامش،الطبعةالأولى، الكويت:المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الزمخشري،أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد(١٤١٨هـ -١٩٩٨م)الكشاف، تحقيق وتعليق ودراسة:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد عوض،الطبعة الأولى،الرياض:مكتبة العبيكان.

الزركشي،أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر(١٣٧٦هـ -١٩٥٧م)البرهان في علوم القرآن، تحقيق:محمد ابو الفضل إبراهيم، الطبعةالأولى،القاهرة:دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي(دون تأ)جامع البيان عن تأويل آي القرآن،حققه وأخرج أحاديثه:محمود محمد شاكر،الطبعةالثانية،القاهرة:مكتبة ابن تيمية.

الكسائي،أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز(١٩٩٨ م) معاني القرآن،أعادبناءه وقدم له: د. عيسى شحاته عيسى،القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.

الكفوي،أيوب بن موسى الحسيني القريمي (١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م)الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه د.عدنان درويش ومحمد المصري ،الطبعة ٢،بيروت – لبنان:مؤسسة الرسالة.

السامرائي،د. فاضل(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م) معاني الابنية في العربية، الطبعة الثانية،عمان:دار عمار.

سيبويه،أبو بشرعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء(١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) الكتاب (كتاب سيبويه)،تحقيق،عبد السلام محمد هارون،الطبعة الثانية،مكتبة الخانجي :القاهرة ودار الرفاعي :الرياض.

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(دون تأ)الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق: تحقيق مركز الدراسات القرآنية،المملكة العربية السعودية:وزارة الشؤون الاسلامية والاوقاف والدعوة والارشاد ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(دون تأ)المزهر في علوم اللغة وأنواعها،شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق على حواشيه :محمد أحمد جاد المولى بك و محمد ابو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي،الطبعة الثالثة،القاهرة:مكتبة دار التراث.

الفواز، لواء،٢٠١٣ م،فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر المشرقي المعاصرمن ١٩٤٩إلى ١٩٩٠ م،بغداد،وزارة الثقافة.

الفراهيدي،الخليل بن احمد،كتاب العين(١٩٨٢م)،تحقيق :د.مهدي المخزومي و د.إبراهيم السامرائي ،الجمهورية العراقية:وزارة الثقافة والاعلام: دار الرشيد للنشر.

المبرد،أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي(١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)المقتضب،تحقيق:محمد عبد الخالق عظيمة،الطبعةالثالثة،جمهورية مصر العربية:وزارة الأوقاف المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية لجنة احياء التراث الاسلامي.

الرازي،أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين(١٤٠١هـ - ١٩٨١م)تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب،الطبعة الاولى،دمشق:دار الفكر.